أسماء الصايغ

كوكب الظلام

على سطح كوكب قانونه الظلام، سكانه أناس يسمعون غير أنهم لا يبصرون، حياتهم منهج مرسوم في مخطوطات قديمة يمليها عليهم حكيم كبير ظن فيه الناس الخير، تصلهم الحياة منه بصوت في آذانهم. يركضون بين آمال عظام من نسيج خيالهم. ظنهم في الحياة ظن المسافرين إلى السماء، فتح عليهم ربهم بابًا فيها فظلوا فيه يعرجون. حاول الكثير والكثير في تغيير هذا القانون ولكن بلا جدوى، أيام وسنون والحياة نفسها.

ولد ثلاثة شبان هم نور وضياء وشروق، وولد معهم حلم الرؤية الذي لا يغادر عقولهم. يعلمون أن الله خلق ألوانًا كثيرة غير اللون الأسود، لكنهم لا يرون غيره. صورهم عن ذواتهم محدودة. يسمعون تغريد العصافير لكنهم لا يفقهونه. فمن ذا الذي يقوى على العيش في حياة بلا رؤيتها؟

يبحثون بلا كَلل، لكنهم لم يتوصلوا سوى إلى شرطٍ للرؤية وحيد هو الهجرة من كوكب الظلام إلى كوكب جديد، تتلاءم فيه نظم حياة غير ذات حياتهم، حينها سيبصرون.

كانوا في حيرة الذي لا يبصر السماء وما يصل إليه منها يلهب شوقه ليراها، ولكن الثمن غالٍ. يدركون أشد الإدراك أن المقابل لرؤية الحياة بحقيقتها قد يكون الاستغناء الكامل عنها. نعم فهجرة الكوكب قد تكون النهاية، فهي رحلة إلى مجهول. فإلى أين؟ وكيف؟

وليس ذلك أشد بلاء من أنها رحلة الأعمى، تاركًا موطنه وأهله وكل شيء.

بين حوار وحوار أخذ الجميع العهد على أنه إذا توفر الدليل وعرفوا الطريق، فسيكون القرار هو الذهاب، وعلى ذلك فسيفعل كل منهم ما بوسعه، وإذا توصل أحدهم إلى حل يخبر الباقينَ به.

ذهب نور إلى الحكيم وحدثه مرارًا كيف السبيل؟ فما كان الجواب سوى مقالة الحكيم: "إذا أدركت الحقيقة أدركت الطريق إليها".

في كل مرة لم يسمع نور إلا تلك العبارة، ويمضي بلا فهم ولا رشد، أما شروق فكان يجلس طيلة النهار على أعلى قمة يدركها منتظرًا وحي السماء أن يلهمه الطريق، ومضت الحياة ذاتها. أما ضياء فبحث في جميع الأرجاء وجال الطرق والأنحاء وراسل العلماء، فإذا به وبعد شهور طوال يصل إلى بداية الطريق، وإذا برجل يدعى "كاشف"، رجل ذو علم وخبرة شديدة في هذا المجال.

اجتمع الرفاق في وجود كاشف الذي قال: "إن الحل الوحيد هو ما يدعى شفرة الإبصار، وأضاف بأنها قد تكون أخطر كلمة قد تمر بأذهانهم، فبها قد تكون البداية، وبها أيضا قد تكون النهاية، والقرار لابد أن يتم دراسته بعناية شديدة".

"تكمن البداية في أنه إذا تم تطبيق هذه الشفرة بكيفية معينة تلائم مركز الإبصار في عقولهم، يحدث تنافر بينهم وبين ذرات كوكبهم، فيتم طردهم بقوة هائلة إلى الفضاء الخارجي، وسيتم

استجابة أقرب كوكب إبصار، ولكن لا يتم ذلك إلا في موعد محدد كل خمسة أعوام، وعلى ذلك فإن لم يتخذوا القرار خلال ثلاثة أشهر من الآن، فسيمضون في دمس ظلامهم خمسة أعوام أخرى، أما عن النهاية، فتتمثل في أنها تعتمد كلية على مقدار قوة معينة تتوافق مع عدد محدد من نبض قلوبهم، إذا انحرف المعيار يحدث طفرة ويتغير مسارها.

تفرق الرفاق على أنهم سيفكرون في الأمر بكل جوانبه، على أن موعد التجمع بعد شهرين من الآن، وفيها يتخذ كل منهم قراره الأخير.

عاد نور إلى منزله وقلبه يعتصر رغبًا ورهبا، وإذا به يحدث أباه الذي طالما حثه على التراجع، فما كان منه إلا أن زاده حيرة، فالأب يتوسل إليه ألا يتركهم، فكل الخيارات ستؤدي إلى انقطاع أي أمل في عودته إليهم، ولكن ما ارتكز في قلب نور هو شوق الرؤية، وأمل الإبصار، ومرت الأيام.

أما عن ضياء فلا نقاش ولا جدال فهو لها ولا خيار، فكان يدرك أنه لا يجوز أن يوقفه خوف الموت عن رؤية الحياة، فإما أن يرى، وإما أن ينتقل إلى مولاه، وحينها سيرى الحقيقة.

كاد خوف شروق يجبره على التنازل التام عن حلمه، فلا خطر يساوي فقدان كل شيء، ولكنه تذكر العهد الذي أخذه على نفسه

أمام رفاقه فماذا يقول لهم؟ وكلما مضت الأيام خوفه يزداد ويزداد.

بقي شهر على موعد التنفيذ.

اجتمع الثلاثة على دراسة الشفرة، وكيفية تطبيقها، فالفترة المتبقية تكفي لإعداد وترتيب كل ما سيحتاجونه.

ذهب الجميع إلى كاشف "معلم الشفرة" وأوضح لهم كل شيء. أصبح كل منهم يدرك الكثير عن عقله، الأمر الذي هيأ لهم إمكانية تحكم كبيرة، دفعتهم لتحمل عناء الرحلة، فازداد الأمل في قلوبهم. أضاف كاشف أنه سيرفق مع كل منهم جهازًا يرسل إشارة إليه عند وصول أحدهم إلى أقرب كوكب إبصار، فقد تتوالى رحلات الهجرة من بعدهم، وتكون مهمتهم هي إهداء نور الحياة إلى سكان كوكبهم..

جاء اليوم الموعود، ودع نور والده بعبارة كان إدراكه لها يشابه إدراكه لعبارة الحكيم:

"أثق تمامًا أن لنا لقاء آخر فدعني أراك فيه بعيني".

لم يعلم نور من الذي أجرى هذه الحروف على لسانه، فكيف قالها وهو يعلم أنه لن يعود؟! ومضى.

قربت ساعة التنفيذ تدق....

دقت عقارب الساعة. اجتمع الجميع وبدأ التطبيق.

في صباح اليوم التالي، استيقظ نور من سبات عميق بسكون عام في جميع أجزاء جسده، دام ذاك السكون خمسة أعوام، أطباء تغدو وتعود ولا فائدة. استسلم الجميع إلا والده الذي يسمع دقات قلبه ويمسك بيده وهو يقول "قم يا ولدي، ألا تتذكر وعدك لي؟"..

أما عن ضياء وشروق فلا وجود لهم.

في رحلة الخروج من واقعهم الأسود، كان مطلب نور هو الترحال إلى مسكن جديد بنور طليق. منذ بداية التطبيق وكلام الحكيم يرج كيانه "من أراد الحقيقة أدرك الطريق إليها" وصوت والده لا يفارق أذنه، فهل هذا هو الفراق المحتوم؟

شروق يرتجف خوفا، ولكنه يظهر ثباته، وضياء مقدام في عمله ولا يدرك غير أنها رحلة الرؤية، وهو يقول "هل سأرى كونك يا الله؟".

قال كاشف: "إن حيرة نور كان لها أكبر الأثر في تغيير قوة الشفرة، انحرف المعيار العام بمعدل نصفي، انفصل فيه عقله، أما جسده فظل معلقًا بكوكب الظلام جوار أبيه".

خرج عقل نور إلى فضاء سحيق، وساح في كون عميق، ودخل كوكب الإبصار بقوة هائلة، وبسرعة كبيرة، فكيف لا ولا جسد يقاوم؟

تحقق حلم نور وشاهد السماء باتساعها، ولكنها في عالم لا وجود له فيه. فما تناقضه من شعور!

خمسة أعوام يرى ويسمع ولا أحد يراه ولا يسمعه. اشتاق نور إلى والده شوقه السابق لرؤية الحياة، وكلمات الحكيم في أذنه، أدرك نور الآن أن مكانه ليس هنا، وإنما عليه العودة بطريقة تماثل تلك التي جاء بها. أخذ يجرب إلى أن جاء موعد التنفيذ، طبق نور الشفرة، وكانت هذه اللحظة التي ضم فيها يده على يد والده، ونطق اسمه بفمه، فكان على كوكبه.

بدأ الإرسال من جهاز شروق بعد قرابة سبعة أعوام واستمر قرابة الثلاثة أشهر ثم انقطع..

فسر كاشف أن خوف شروق الشديد أثناء الانطلاق لم يؤثر البتة على مقدار القوة التي أطلقها للشفرة، فقد وفق في الانفصال الكلي عن الكوكب، وطرد في الفضاء الخارجي سبعة أعوام، إلى أن اقترب من كوكب الإبصار، والذى كان اقترابه هو النهاية وما أصعبها نهاية!

لم يظهر أثر خوفه الشديد أثناء التطبيق إلا في هذه الفترة، فقد أثر على نبض قلبه، مما أدى إلى حدوث طفرة كلية، عندما بدأ الاقتراب منه. اختل التوازن العام لجسده. رفض عقله إبداء أي استجابة راجحة لتحقيق التجاذب مع ذرات الكوكب الجديد، ومع تكرار محاولته الثلاثة أشهر عظُمت الطفرة. تم تدمير كلي لمركز الحياة. توقف الإرسال..

أول إشارة تأتي من جهاز ضياء كانت على بعد قرابة عشرة أعوام من انطلاقه في رحلته.

تناسبت قوة الشفرة مع المقدار المحدد للانفصال الكلي تمامًا عن الكوكب، خرج في رحلة شاقة إلى الفضاء الخارجي، إلى أن تم التجاذب بينه وبين كوكب الإبصار. الجهاز مستمر في استقبال الإشارات إلى الآن.

استقر ضياء على كوكب النور "أنا أرى؟ أرى؟"

فتح عينيه للحياة كمولود جديد. بعث فيه الله الحياة بنورها. كان بكاؤه الشديد هو أذان لبداية اختارها. انتصار لمعركة عنيفة كادت تقضي عليه. وصول النور في تلك النقطة هو تجسيد لحلمه الذي محا حروف كلمة مستحيل.

كانت أنفاسه المتلاحقة حينها تعزف ألحان الحياة التي رآها الآن. كان احتضانه للأرض كمن وجد عزيزته التي طالما رسم صورها بخياله ولونها الآن.